التقديم :



https://nidaulhind.blogspot.com

مدونة علمية دعوية فكرية

(راجيا دعائكم)

يحتوي على الدراسة والنص الكامل للقصيدة

(കവിതയുടെ പൂർണ്ണ രൂപം പഠനക്കുറിപ്പിന് ശേഷം അടിയിലുണ്ട്)

استطلاعات

قصيدة أطيب النغم في مدح سيد العرب والعجم: تحفة هندية رائعة في المديح النبوي

د/ ن. أ. محمد عبد القادر

مفهوم المديح النبوي

شعر المديح النبوي هو الشعر الذي نظم في مدح النبي محمد ﷺ بتعداد صفاته الخَلقية والخُلقية وإظهار الشوق لرؤيته وزيارة قبره والأماكن المقدسة التي ترتبط بحياة الرسول ﷺ، مع ذكر معجزاته المادية والمعنوية ونظم سيرته شعرا والإشادة بغزواته وصفاته المثلى والصلاة عليه تقديرا وتعظيما. والمديح النبوي في قول زكي مبارك: "فن من فنون الشعر التي أذاعها التصوف، فهو لون من التعبير عن العواطف الدينية وباب من الأدب الرفيع، لأنها لا تصدر إلا عن قلوب مفعمة بالصدق والإخلاص"[١]

يستوحي المديح النبوي مادته الأصلية والإبداعية ورؤيته الإسلامية من القرآن الكريم أولا والسنة النبوية ثانيا. وهناك مصادر ثانوية للمدائح النبوية وهي كتب السيرة التي تتمثل في مجموعة من الوثائق والمصنفات التي كتبت حول سيرة الرسول ﷺ وكتب التفسير التي بينت حياة الرسول ﷺ بيانا واضحا.

[١]. د/ زكي مبارك، المدائح النبوية في الأدب العربي، ، المكتبة العصرية، بيروت، ط:١، ١٩٣٥، ص:١٧

نشأة المديح النبوي وتطوره

وُلد المديح النبوي في الشعر العربي مع مولد النبي ﷺ، وانتشر بعد ذلك مع انطلاق الدعوة الإسلامية، ولكن المديح النبوي بسماته الخاصة لم يظهر إلا بقصيدة البردة المشهورة للشاعر البوصيري في القرن السابع الهجري.

وقد ازدهر المديح النبوي ازدهارا واضحا في الفترات التي عانى فيها المسلمون المحن والشدة، فنرى لنضج المديح النبوي ثلاث مراحل: المرحلة الأولى هي المرحلة التأسيسية في فترة الدعوة الإسلامية. وكان الرسول في تلك المرحلة يوجه الشعراء إلى الدفاع عن العقيدة ورد هجوم المشركين نحو الرسول وأصحابه[١]

تطور فن المديح النبوي في هذه المرحلة على يد الشعراء الذين دافعوا عن الإسلام ورسوله الأمين. ومن بينهم شاعر الرسول حسان بن ثابت وصاحب البردة (بانت سعاد) كعب بن زهير وعبد الله بن رواحة. ومن أهمّ قصائد المديح النبوي في المرحلة التأسيسية لاميّة كعب بن زهير بن أبي سلمى.

والمرحلة الثانية لتطور المديح النبوي هي المرحلة الوسيطة، وتعتبر هذه المرحلة هي المرحلة الحقيقة لتأسيس فن مستقل في المديح النبوي، وذلك بقصيدة الإمام البوصيري المشهورة بالبردة. وعهد البوصيري عهد المحن والفتنة للأمة المسلمة إذ وقعت فيه الحروب الصليبية. فمن الطبيعي أن ترجع الأمة المسلمة إلى التعاليم الإسلامية والشخصية المثالية لرسوله وأن تكون هذه من أهم موضوع الشعر العربي. وفي هذه المرحلة أيضا ظهرت في العربية أشعار تصوفية. وكان البوصيري (محمد بن سعيد الصنهاجي البوصيري) واحدا من أهم المتصوفين المصريين في عصره[٢].

ويعتبر العصر الحديث مرحلة ثالثة لازدهار المدائح النبوية، لأنه هو عصر التحدي الأكبر، فالقوات الاستعمارية سيطرت الوطن الإسلامي حقبة من الزمن، وهي لا تزال تطلع إلى

---

[١]. د/ ماهر حسين فهمي، قضايا في الأدب والنقد رؤية عربية، وقفة خليجية، دار الثقافة، دوحة، قطر، ط: ١٩٨٦، ص: ٩٣-٩٤

[٢]. نجمة حجار، مقالة في صفحة ويب: http://forum.stop55.com/216786.html

أراض جديدة واسعة في العالم العربي، ولذلك تعود المدائح النبوية قوة دافعة من جديد، وتعود السيرة النبوية مثلا أعلى وقدوة يتبعها السائرون، فلا غرو أن يظهر لون جديد أيضا بحكم التطور الفني المعاصر[١].

مساهمة الهنود في الشعر العربي

قد أسهمت الهند في الأدب العربي مساهمة تستحق العناية والتقدير، وأما الشعر العربي بخصوصه فقد لقي رواجا كبيرا في الهند حيث أنجبت نوابغ من الشعراء الذين أغنوا الشعر العربي بقرائضهم البديعة. ويرجع فضل انتشار الشعر العربي في الهند إلى النظام التعليمي السائد في المدارس الدينية في مختلف العصور حيث كان يهتم بالأدب العربي اهتماما بالغا. يقول الدكتور نبيل فولي: لم يغب عن النظام التعليمي الذي استقر في الهند على صورة "درس نظامي" الشهير هذا الرباط المقدس بين الإسلام واللغة العربية، فأولَوا علوم اللغة العربية وأدبها اهتمامًا بارزًا إلى جانب العلوم الشرعية، حتى صارت دراسة مقامات الحريري وديوان أبي الطيب المتنبي وديوان الحماسة وديوان حسان بن ثابت من ثوابت هذا المنهج. وقد استثارت هذه الدراسة الأدبية قريحة المتعلمين، حتى شارك كثير منهم في قرض الشعر باللسان العربي، ولعل الاهتمام بحفظ هذه المتون الأدبية واستظهارها قد أسهم في تعزيز هذا التوجه نحو الشعر العربي[٢].

وأما أهم السمات التي يمكن ملاحظتها على العربية وشعرائها في شبه القارة الهندية فتتلخص فيما يلي:

أ- غلب الاهتمام بالعلم الشرعي على أكثر هؤلاء الشعراء، فمنهم المحدث والمفسر والأصولي والفقيه، ويندر أن نجد من بينهم من غلب عليه الأدب.

ب- التقليد واقتفاء أثر الشعراء السابقين، وما يتبع ذلك من الركاكة، مع فخامة الألفاظ وغرابتها في أحايين كثيرة، حيث بدا الشعر القديم نموذجًا لا يقصّر الشاعر الهندي في

[١]. د/ ماهر حسن فهمي، ص: ٩٤
[٢] د\ نبيل فولي، مجلة الوعي الإسلامي، الكويت

احتذائه، حتى في موضوعاته وطرق تعبيره، فانحصر أغلب شعرهم في المدح والرثاء. ولعل من أسباب الضعف الذي عانى منه أكثر هذا الشعر أيضًا - إضافة إلى غرابة لغة القريض على طباعهم - أن الشاعر الهندي الذي كتب بالعربية كان منغمسًا في العلم والتعليم، فانعكس ذلك في شعره.[١] فكان علماء الهند كأنهم كانوا يتمثلون بقول الإمام الشافعي رحمه الله:

ولولا الشعر بالعلماء يزري   لكنت اليوم أشعر من لبيد

المديح النبوي في الشعر العربي الهندي

وإذا تتبعنا الشعر العربي الهندي وجدنا أن المدائح النبوية تحتل حصة كبيرة منه، ففي رأي الدكتور نبيل فولي "هذا اللون من القصائد، المخصَّص لمدح النبي صلى الله عليه وسلم شائع في آداب المنطقة بكل لغاتها، ويسمونه بالنعت، وقد أُبدعت فيه قصائد ودواوين كثيرة جدًا، حتى إن بعض شعراء شبه القارة قد لا يبدع شعرًا إلا في هذا اللون وحده."[٢]

شاه ولي الله الدهلوي

هو شيخ الإسلام قطب الدين أحمد ولي الله بن عبد الرحيم بن وجيه الدين العمري الدهلوي، ولد في بيت علم وفضل وتدين في ١١١٤هـ . أخذ العلوم عن والده الذي تعهده وتولى تربيته الفكرية والروحية، وكان شيخا من مشايخ الطريقة النقشبندية فأخذها عنه ولده. أقام بالحجاز عامين وأخذ عن شيوخها كالشيخ طاهر محمد بن إبراهيم الكردي بالمدينة والشيخ وفد الله المالكي وتاج الدين القلعي بمكة. كان بحرا في علوم كثيرة عربية وإسلامية وقطبا في زمانه تشد إليه الرحال، حباه الله من الكشف والفهم ما جعله فريدا

[١] المرجع السابق
[٢] نفس المرجع

في نهجه، وجمع بين الحديث والتصوف. وله مؤلفات عديدة أحصى منها السيد عبد الحي الحسني اللكنوي خمسة وثلاثين في مختلف المعارف الإسلامية والعربية[١].

قصيدة أطيب النغم في مدح سيد العرب والعجم

هذه قصيدة بائية شهيرة في مائة بيت وستة، توجد في ديوانه الذي جمعه ابنه الشيخ عبد العزيز ورتبه ابنه رفيع الدين. وقد شرح الشاعر نفسه هذه القصيدة في كتاب صغير يعرف بنفس العنوان.

يبدأ الشاعر هذه القصيدة بذكر ما يعاني منه من المصائب التي يقفو بعضها بعضا وتشغله عن كل راحة، فإنه قد ضاقت صدره من الأزمات والمشكلات التي تحيط به من جميع الجوانب، فيبحث عن ناصر يلوذ به ويلجأ إليه في حل هذه الأزمات وفي تفريج هذه الكرب، فلا يجد إلا النبي محمدا ﷺ، يقول في مطلع القصيدة:

كـأن نجومـاً أومضـت فـي الغياهـب   عيـون الأفـاعي أو رؤوس العقـارب
إذا كـان قلـب المـرء فـي الأمـر خـاثراً   فأضـيق مـن تسـعين رحـب السباسـب
وتشـغلني عنـي وعـن كـل راحتـي   مصـائب تقفـو مثلهـا فـي المصـائب
إذا مـا أتتنـي أزمـة مدلهمـة   تحـيط بنفسـي مـن جميـع جوانـب
تطلبـت هـل مـن ناصـر أو مسـاعد   ألـوذ بـه مـن خـوف سـوء العواقـب
فلسـت أرى إلا الحبيـب محمـداً   رسـول إلـه الخلـق جـم المناقـب
ومعتصـم المكـروب فـي كـل غمـرة   ومنتجـع الغفـران مـن كـل هائـب

ثم يمضي في مدح الرسول ﷺ فيتحدث عن شرف نسبه وخصائصه الخَلقية والخُلُقية التي تدل على أنه ﷺ كان أحسن الناس خلقا وخلقة، وأنه هو الإنسان الكامل والمثل الأعلى للإنسانية جمعاء، فيقول:

سـلالة إسـماعيل والعـرق نـازع   وأشـرف بيـت مـن لـؤي بـن غالـب
بشـارة عيسـى والـذي عنـه عبـروا   بشـدة بـأس بالضـحوك المحـارب

[١] د/ أحمد إدريس، الأدب العربي في شبه القارة الهندية حتى أواخر القرن العشرين، الهرم: عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ١٩٩٨، ص: ٤٢٤

ومــن أخبــروا عنــه بــأن لــيس خلقــه ... بفــظ وفــي الأســواق لــيس بصــاخب
ودعـــــوة إبـــــراهيم عنـــــد بنائـــــه ... بمكـــة بيتـــاً فيـــه نيـــل الرغائـــب
جميـــل المحيـــا أبـــيض الوجـــه ربعـــة ... جليـــــل كـــــراديس أزج الحواجـــــب
صـــبيح ملـــيح أدعـــج العـــين أشـــكل ... فصـــيح لـــه الإعجـــام لـــيس بشـــائب
وأحســـن خلـــق اللّـــه خلقـــاً وخلقـــة ... وأنفســـــهم للنـــــاس عنـــــد النوائـــــب
وأجـــود خلـــق اللّـــه صـــدراً ونـــائلاً ... وأبســـطهم كفـــاً علـــى كـــل طالـــب
وأعظـــــم حـــــر للمعـــــالي نهوضـــــه ... إلـــى المجـــد ســـام للعظـــائم خاطـــب
تـــرى أشـــجع الفرســـان لاذ بظهـــره ... إذا احمـــر بـــاس فـــي بئـــيس المواجـــب

ثم ينتقل إلى بيان الأوضاع التي سادت في القرن السادس الميلادي قبل البعثة النبوية ويبين كيف من الله على المجتمع الإنساني ببعث حبيبه محمد ﷺ على فترة من الرسل يقيم لهم دينهم الذي ارتضى لهم، من بعد ما كان المشركون يفترون على الله الكذب ويحلّون ما حرّم الله ويحرّمون ما أحلّ الله، وكان اليهود والنصارى يحرّفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظا مما ذكروا به، واتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله، وكان الناس يعانون من جور الحكام واستبدادهم، فأرسل إليهم الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل يحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم، وأنزل إليه الكتاب يتلى عليهم، وما كان يتلو من قبله من كتاب ولا يخطه بيمينه. يصور الشاعر هذه الأمور في الأبيات التالية:

أتانـــا مقـــيم الـــدين مـــن بعـــد فتـــرة ... وتحريـــف أديـــان وطـــول مشـــاغب
فيـــا ويـــل قـــوم يشـــركون بـــربهم ... وفـــيهم صـــنوف مـــن وخـــيم المثالـــب
وديـــــنهم مـــــا يفتـــــرون بـــــرأيهم ... كتحـــريم حـــام واختـــراع الســـوائب
ويـــا ويـــل قـــوم حرّفـــوا ديـــن ربهـــم ... وأفتـــوا بمصـــنوع لحفـــظ المناصـــب
ويـــا ويـــل مـــن أطـــرى بوصـــف نبيـــه ... فســـماه ربَّ الخلـــق اطـــراء خائـــب
ويـــا ويـــل قـــوم قـــد أبـــار نفوســـهم ... تكلـــف تزويـــق وحـــب الملاعـــب
ويـــا ويـــل قـــوم قـــد أخـــفّ عقـــولهم ... تجبّـــر كســـرى واصـــطلام الضـــرائب
فـــأدركهم فـــي ذاك رحمـــة ربنـــا ... وقـــد أوجبـــوا منـــه أشـــد المعائـــب

فأرسل من عليا قريش نبيه ولم يك فيما قد بلَوْه بكاذب
ومن قبل هذا لم يخالط مدارس الـ يهود ولم يقرأ لهم خط كاتب
فأوضح منهاج الهدى لمن اهتدى ومنّ بتعليم على كل راغب

ثم يشرع في سرد المعجزات التي أيد الله بها نبيه محمدا ﷺ، فإن من علامات الأنبياء وقوع خوارق العادات لهم شاهدة بصدقهم، وهي أفعال يعجز البشرعن مثلها فسميت بذلك معجزة، وقد وقع لسيدنا محمد ﷺ معجزات عديدة.. يقول الشاعر:

نصدق دين المصطفى بقلوبنا على بينات فهمها من غرائب
براهين حق أوضحت صدق قوله رواها ويروي كل شب وشائب
من الغيب كم أعطى الطعام لجائع وكم مرة أسقى الشراب لشارب
وكم من مريض قد شفاه دعاؤه وإن كان قد أشفى لوجبة واجب
ودرت له شاة لدى أم معبد حليباً ولا تسطاع حلبة حالب
وقد ساخ في أرض حصان سراقة وفيه حديث عن براء بن عازب
وقد فاح طيباً كف من مسه كفه وما حلّ رأساً جسّ شيب الذوائب
وألقى شقي القوم فرث جزورهم على ظهره واللّه ليس بعازب
فأُلقُوا ببدر في قليب مخبث وعم جميع القوم شؤم المداعب
وأخبر أن أعطاه مولاه نصرة ورعباً إلى شهر مسيرة سارب
فأوفاه وعد الرعب والنصر عاجلاً وأعطى له فتح التبوك ومارب
وأخبر عنه أن سيبلغ ملكه إلى ما أرى من مشرق ومغارب
فأسبل رب الأرض بعد نبيه فتوحاً توارى ما لها من مناكب
وكلمه الأحجار والعجم والحصى وتكليم هذا النوع ليس برائب
وحن له الجذع القديم تحزناً فإن فراق الحب أدهى المصائب
وأعجب تلك البدر ينشق عنده وما هو في إعجازه من عجائب

ولكن أعظم هذه المعجزات وأشرفها وأوضحها دلالة هو القرآن الكريم. يقول الشاعر:

وراعت بليغ الآي كل مجادل خصيم تمادى في مراء المطالب
براعة أسلوب وعجز معارض بلاغة أقوال وأخبار غائب

ثم يشرع في مدح أصحابه وأهل بيته رضي الله عنهم ورضوا عنه، فيقول في مدح أصحابه الذين ثبتوا معه كالجبال في العسر واليسر، وفي الرخاء والشدة، وقد وصفهم الله تبارك وتعالى بأنهم أشداء على الكفار رحماء بينهم:

إذا ما أثاروا فتنة جاهلية	يقود ببحر زاخر من كتائب
يقوم لدفع البأس أسرع قومه	بجيش من الأبطال غر السلاهب
أشداء يوم البأس من كل باسل	ومن كل قوم بالأسنة لاعب
توارث أقداماً ونبلاً وجرأة	نفوسهم من أمهات نجائب
جزى اللّه أصحاب النبي محمد	جميعاً كما كانوا له خير صاحب

ويقول في مدح أهل بيته ﷺ أبياتا رائعة، ويدعو الله تعالى أن يجعل أمرهم على الخير والاستقامة حتى يرث الله الأرض ومن عليها، ويعد ثلاث خصال من أعجب العجائب، وهي نجابة ذرية أبي طالب، وخلافة بني العباس، ودين النبي محمد ﷺ. ويذكر أنه لا يزال طائفة منهم ظاهرين على الحق، بعضهم يجاهدون بالسيوف القواطع، وبعضهم بالحجج والبراهين السواطع:

وآل رسول اللّه لا زال أمرهم	قويماً على ارغام أنف النواصب
ثلاث خصال من تعاجيب ربنا	نجابة أعقاب لوالد طالب
خلافة عباس ودين نبينا	تزايد في الأقطار من كل جانب
يؤيد دين اللّه في كل دورة	عصائب تتلو مثلها من عصائب
فمنهم رجال يدفعون عدوهم	بسمر القنا والمرهفات القواضب
ومنهم رجال يغلبون عدوهم	بأقوى دليل مفحم للغواضب
أشداء يوم البأس من كل باسل	ومن كل قوم بالأسنة لاعب

ثم يذكر أنه يرى وجهه الكريم في المنام في بعض الأحيان فيفديه بنفسه وذويه، وأنه يعتريه لذكره هزة لا يعرفها إلا ذو حظ عظيم، ثم يصلي على النبي ﷺ ويثني عليه ويستشفع به:

ويبــدو محيــاه لعينــي فــي الكــرى	بنفســـي أفديـــه إذاً والأقـــارب
وتـــدركني فـــي ذكـــره قشـــعريرة	مـــن الوجـــد لا يحويـــه علـــم الأجانـــب
وألفـــي لروحـــي عنـــد ذلـــك هـــزة	وأنســـاً وروحـــاً دون وثبـــة واثـــب
وصـــلى عليـــك اللّـــه يـــا خيـــر خلقـــه	ويـــا خيـــر مـــأمول ويـــا خيـــر واهـــب
ويـــا خيـــر مـــن يرجـــى لكشـــف رزيـــة	ومـــن جـــوده قـــد فـــاق جـــود السـحائب
فأشـــــهد أن اللّـــــه راحـــــم خلقـــــه	وأنـــــك مفتـــــاح لكنـــــز المواهـــــب
وأنـــــك أعلـــــى المرســـــلين مكانـــــة	وأنـــت لهـــم شـــمس وهـــم كالثواقـــب
وأنـــــت شـــــفيع يـــــوم لاذو شـــــفاعة	بمغـــن كمـــا أثنـــى ســـواد بـــن قـــارب
وأنـــــت مجيـــــري مـــــن هجـــــوم ملـــــة	إذا أنشـــبت فـــي القلـــب شـــر المخالـــب

وأخيرا يقول: لا أخشى الأزمات ولا البليات، لأني متحصن في قلاع محكمة مشيدة، وفي حراسة جنود مجندة، يريد أنه قد اعتصم بالحبيب محمد ﷺ في حفظه عن جميع البلايا والمهلكات:

فمـــا أنـــا أخشـــى أزمـــة مدلهمـــة	ولا أنـــا مـــن ريـــب الزمـــان براهـــب
فـــإني مـــنكم فـــي قـــلاع حصـــينة	وحـــد حديـــد مـــن ســـيوف المحـــارب
ولـــيس ملومـــاً عـــي صـــب أصـــابه	غليـــل الهـــوى في الأكـــرمين الأطائـــب

الأهمية التاريخية

حكم المسلمون الهند منذ أن فتحها محمد الغزنوي سنة (٣٩٢ هـ / ١٠٠١م)، وتتابعت الدول في حكمها فترة بعد فترة، حتى ألقت بمقاليدها إلى الأسرة التيمورية؛ فنهضت بأعباء الحكم، وأقامت حضارة شاهدة على ما بلغته من تقدم وازدهار، ثم وفد الإنجليز إلى الهند تجارا، فأكرم الحكام المسلمون وفادتهم، وساعدوهم في تجاراتهم، وشيئًا فشيئًا اتسع نفوذهم، وعهد إليهم الحكام المسلمون بالقيام على بعض الأعمال، ولم يكن وجودهم خطرا يهدد الدولة في فترة قوتها، حتى إذا ضعفت أسفر الإنجليز عن وجههم القبيح، وسيطروا على الهند، وعلى حكامها المسلمين الذين بلغت دولة الهند في عهدهم مبلغا كبيرا من الضعف والجهل وانتشار الفساد واللهو.

وفي ظل هذه الأجواء المتردية، وانشغال الحكام بأنفسهم، وانصرافهم إلى ملذاتهم، تداعت صيحات مخلصة تنبه القلوب الغافلة، وتوقظ العيون النائمة، وتبث العزم في النفوس الخائرة؛ كي تهب وتستفيق وتقوم بما يجب عليها، وتعيد أمجاد الماضي وتسترد نسماته العطرة، وكان شاه ولي الله الدهلوي أعلى تلك الأصوات، وأكثرها حركة ونشاطا. فإنه قام بعمل تجديدي وإصلاحي ضخم جدا. وإنما يمكن تخيل ضخامة ذلك العمل التجديدي إذا اطلعنا على أحوال المسلمين في الهند في تلك الفترة، وتصورنا تلك الظروف التي آلت إليها الحالة السياسية والاجتماعية والدينية والفكرية للمسلمين في الهند في الفترة التي بدأ فيها الشيخ عمله التجديدي.

فكان من الطبيعي أن يدعو هذا المجدد الأمة المسلمة إلى التعاليم الإسلامية والشخصية المثالية للرسول ﷺ، وأن يقرض هذه القصيدة الرائعة التي تتسم بصدق العاطفة ومتانة اللغة وجزالة الألفاظ وفخامة المعاني، كما ليس بغريب على ولي الله ذي الباع في العرفان والتصوف أن يقطر شعره حبا ومدحا لرسول الله ﷺ.

الخاتمة

وفي نهاية المطاف يمكن أن نستنتج مما سبق النقاط التالية:

- ولد المديح النبوي في الشعر العربي مع ولادة النبي ﷺ. وانتشر مع انطلاق الدعوة الإسلامية.
- ازدهر المديح النبوي في العصور التي عانى فيها المسلمون البلاء والشدة.
- لقي الشعر العربي رواجا كبيرا في الهند، ويرجع فضله إلى النظام التعليمي السائد في المدارس الدينية في مختلف العصور، فإنه كان يهتم بالأدب العربي اهتماما بالغا.
- من أهم سمات الشعر العربي في الهند غلب الاهتمام بالعلم الشرعي على أكثر الشعراء، والتقليد واقتفاء أثر الشعراء السابقين، وما يتبع ذلك من الركاكة، مع فخامة الألفاظ وغرابتها في أحايين كثيرة.

- المدائح النبوية تحتل حصة كبيرة من الشعر العربي الهندي، حتى إن بعض الشعراء كانوا لا يبدعون إلا في هذا النوع وحده.
- يعتبر شاه ولي الله الدهلوي علما من أعلام الأدب العربي في الهند، ولكنه لم يشتهر في الأدب العربي كما اشتهر في العلوم الإسلامية، ومقامه الذي لا ينازعه فيه أحد هو في العلوم الإسلامية والعرفان.
- من أهم إنتاجاته الأدبية ديوانه العربي الذي جمعه ابنه الشيخ عبد العزيز ورتبه ابنه رفيع الدين، يوجد فيه هذه القصيدة البائية التي تعتبر واحدة من أروع المدائح النبوية للشعراء الهنود، وقد شرحها بنفسه تحت عنوان "أطيب النغم في مدح سيد العرب والعجم".
- ولهذه القصيدة أهمية بالغة من الناحية التاريخية، حيث إن شاه ولي الله الدهلوي رحمه الله عاش في عصر بلغت فيه دولة المسلمين في الهند مبلغا كبيرا من الضعف والجهل وانتشار الفساد واللهو، وأخذ المستعمرون يتسع نفوذهم حتى استولوا أخيرا على الهند. وكانت الحالة السياسية والاجتماعية والدينية والفكرية للمسلمين في الهند في تلك الفترة في غاية التدهور والانهيار، فكانت الأوضاع مواتية لازدهار المديح النبوي.
- ومن الناحية الأدبية يمكن أن نأخذ هذه القصيدة خير مثال للشعر العربي الهندي الذي ازدهر على أيدي العلماء الإسلاميين، فهذه القصيدة تتسم بصدق العاطفة ومتانة اللغة وروعة الأسلوب، وتحتوي على درر المعاني الإسلامية وشمائل النبي الكريم ﷺ وأخلاقه وذكر بعض معجزاته ووصف الأوضاع الاجتماعية والدينية إبان بعثته وبث الشكوى إلى النبي ﷺ عما يعانيه من الهموم والأحزان والاستشفاع به والاعتصام به للتخلص من جميع التحديات والمشكلات. وقد استوحى مادته الأصلية والإبداعية من القرآن والسنة وكتب

السيرة النبوية. وتبدو في القصيدة براعة الشاعر في اختيار الكلمات والتراكيب وتمكنه من قرض الشعر وإتقانه للغة ورسوخه في العلوم الإسلامية.

- لا نجد في هذه القصيدة ما يسمى تجديدا في هذا المجال، ولا غرو حيث إن الشاعر عاش في القرن الثامن عشر الميلادي، وفي تلك الأيام كان الشعر العربي جامدا في موضوعاته وساذجا في فكره، ولم يحظ الشعر العربي بالنهضة الحديثة إلا في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين الميلادي. على الرغم من ذلك يمكن أن نعد هذه القصيدة واحدة من القصائد الرائعة من الطراز الكلاسيكي.

النص الكامل للقصيدة

كأن نجوماً أومضت في الغياهب   عيون الأفاعي أو رؤوس العقارب

إذا كان قلب المرء في الأمر خاثراً   فأضيق من تسعين رحب السباسب

وتشغلني عني وعن كل راحتي   مصائب تقفو مثلها في المصائب

إذا ما أتتني أزمة مدلهمة   تحيط بنفسي من جميع جوانب

تطلبت هل من ناصر أو مساعد   ألوذ به من خوف سوء العواقب

فلست أرى إلا الحبيب محمداً   رسول إله الخلق جم المناقب

ومعتصم المكروب في كل غمرة   ومنتجع الغفران من كل هائب

ملاذ عباد اللّه ملجأ خوفهم   إذا جاء يوم فيه شيب الذوائب

إذا ما أتوا نوحاً وموسى وآدماً ... وقد هالهم إبصار تلك الصعائب

فما كان يغني عنهم عند هذه ... نبي ولم يظفرهم بالمآرب

هناك رسول اللّه ينجو لربه ... شفيعاً وفتاحاً لباب المواهب

فيرجع مسروراً بنيل طلابه ... أصاب من الرحمن أعلى المراتب

سلالة إسماعيل والعرق نازع ... وأشرف بيت من لؤي بن غالب

بشارة عيسى والذي عنه عبروا ... بشدة بأس بالضحوك المحارب

ومن أخبروا عنه بأن ليس خلقه ... بفظ وفي الأسواق ليس بصاخب

ودعوة إبراهيم عند بنائه ... بمكة بيتاً فيه نيل الرغائب

جميل المحيا أبيض الوجه ربعة ... جليل كراديس أزج الحواجب

صبيح مليح أدعج العين أشكل ... فصيح له الإعجام ليس بشائب

وأحسن خلق اللّه خلقاً وخلقة ... وأنفسهم للناس عند النوائب

وأجود خلق اللّه صدراً ونائلاً وأبسطهم كفاً على كل طالب

وأعظم حر للمعالي نهوضه إلى المجد سام للعظائم خاطب

ترى أشجع الفرسان لاذ بظهره إذا احمر باس في بئيس المواجب

وآذاه قوم من سفاهة عقلهم ولم يذهبوا من دينه بمذاهب

فما زال يدعو ربه لهداهمُ وإن كان قد قاسى أشد المتاعب

وما زال يعفو قادراً من مسيئهم كما كان منه عنده جبذة جاذب

وما زال طول العمر للّه معرضاً عن البسط في الدنيا وعيش المزارب

بديع كمال في المعالي فلا امرؤ يكون له مثلاً ولا بمقارب

أتانا مقيم الدين من بعد فترة وتحريف أديان وطول مشاغب

فيا ويل قوم يشركون بربهم وفيهم صنوف من وخيم المثالب

ودينهم ما يفترون برأيهم كتحريم حام واختراع السوائب

ويا ويل قوم حرفوا دين ربهم وأفتوا بمصنوع لحفظ المناصب

ويا ويل من أطرى بوصف نبيه فسماه رب الخلق اطراء خائب

ويا ويل قوم قد أبار نفوسهم تكلفَ تزويق وحب الملاعب

ويا ويل قوم قد أخف عقولهم تجبر كسرى واصطلام الضرائب

فأدركهم في ذاك رحمة ربنا وقد أوجبوا منه أشد المعائب

فأرسل من عليا قريش نبيه ولم يك فيما قد بلوه بكاذب

ومن قبل هذا لم يخالط مدارس ال يهود ولم يقرأ لهم خط كاتب

فأوضح منهاج الهدى لمن اهتدى ومن بتعليم على كل راغب

وأخبر عن بدء السماء لهم وعن مقام مخوف بين أيدي المحاسب

وعن حكم رب العرش فيما يعينهم وعن حكم تروى بحكم التجارب

وأبطل أصناف الخنى وأبادها ... وأصناف بغي للعقوبة جالب

وبشر من أعطى الرسول قياده ... بجنة تنعيم وحور كواعب

وأوعد من يأبى عبادة ربه ... عقوبة ميزان وعيشة قاطب

فأنجى به من شاء ربي نجاتـه ... ومن خالب فلتندبه شر النوادب

فأشهد أن اللّه أرسل عبده ... بحق ولا شيء هناك برائب

وقد كان نور اللّه فينا لمهتد ... وصمصام تدمير على كل ناب

وأقوى دليل عند من تم عقله ... على أن شرب الشرع أصفى المشارب

تواطى عقول في سلامة فكره ... على كل ما يأتي به من مطالب

سماحة شرع في رزانة شرعة ... وتحقيق حق في إشارة حاجب

مكارم أخلاق وإتمام نعمة ... نبوة تأليف وسلطان غالب

نصدق دين المصطفى بقلوبنا ... على بينات فهمها من غرائب

براهين حق أوضحت صدق قوله ... رواها ويروي كل شب وشائب

من الغيب كم أعطى الطعام لجائع ... وكم مرة أسقى الشراب لشارب

وكم من مريض قد شفاه دعاؤه ... وإن كان قد أشفى لوجبة واجب

ودرت له شاة لدى أم معبد ... حليباً ولا تسطاع حلبة حالب

وقد ساخ في أرض حصان سراقة ... وفيه حديث عن براء بن عازب

وقد فاح طيباً كفّ من مسّ كفه ... وما حل رأساً جس شيب الذوائب

وألقى شقي القوم فرث جزورهم ... على ظهره واللّه ليس بعازب

فألقوا ببدر في قليب مخبث ... وعم جميع القوم شؤم المداعب

وأخبر أن أعطاه مولاه نصرة ... ورعباً إلى شهر مسيرة سارب

فأوفاه وعد الرعب والنصر عاجلاً ... وأعطى له فتح التبوك ومارب

وأخبر عنه أن سيبلغ ملكه ... إلى ما أرى من مشرق ومغارب

فأسبل رب الأرض بعد نبيه   فتوحاً توارى ما لها من مناكب

وكلمه الأحجار والعجم والحصى   وتكليم هذا النوعِ ليس برائب

وحنَّ له الجذعُ القديمُ تحزناً   فإن فراق الحب أدهى المصائب

وأعجب تلك البدر ينشق عنده   وما هو في إعجازه من عجائب

وشق له جبريل باطن صدره   لغسل سواد بالسويداء لازب

وأسرى على متن البراق إلى السما   فيا خير مركوب ويا خير راكب

وشاهد أرواح النبيين جملة   لدى الصخرة العظمى وفوق الكواكب

وشاهد فوق الفوق أنوار ربه   كمثل فراش وافر متراكب

وراعت بليغ الآي كل مجادل   خصيم تمادى في مراء المطالب

براعة أسلوب وعجز معارض   بلاغة أقوال وأخبار غائب

وسمّاه رب الخلق أسماء مدحة   تبين ما أعطى له من مناقب
رؤف رحيم أحمد ومحمّد   مقفٍي ومفضال يسمى بعاقب
إذا ما أثاروا فتنة جاهلية   يقود ببحر زاخر من كتائب
يقوم لدفع البأس أسرع قومه   بجيش من الأبطال غر السلاهب
أشداء يوم البأس من كل باسل   ومن كل قوم بالأسنة لاعب
توارث أقداماً ونبلاً وجرأة   نفوسهم من أمهات نجائب
جزى اللّه أصحاب النبي محمد   جميعاً كما كانوا له خير صاحب
وآل رسول اللّه لا زال أمرهم   قويماً على ارغام أنف النواصب
ثلاث خصال من تعاجيب ربنا   نجابة أعقاب لوالد طالب
خلافة عباس ودين نبينا   تزايد في الأقطار من كل جانب
يؤيد دين اللّه في كل دورة   عصائب تتلو مثلها من عصائب

فمنهم رجال يدفعون عدوهم ... بسمر القنا والمرهفات القواضب

ومنهم رجال يغلبون عدوهم ... بأقوى دليل مفحم للغاضب

ومنهم رجال بينـوا شرع ربنا ... وما كان فيه من حـرام وواجـب

ومنهم رجال يدرسون كتابـه ... بتجويـد ترتيـل وحفظ مراتـب

ومنهم رجال فسـروه بعلمهـم ... وهم علـمونا ما به من غـرائب

ومنهم رجال بالحـديث تولعـوا ... وما كان فيه من صحيح وذاهـب

ومنهم رجال مخلصون لربهـم ... بأنفسهـم خصب البـلاد الأجادب

ومنهم رجال يهتـدى بعظاتهـم ... قيـام إلى ديـن من الله واصـب

على الله رب الناس حسن جزاءهم ... بما لا يوافي عـده ذهـن حاسـب

فمن شـاء فليذكر جمال بثينة ... ومن شـاء فليغزل بحب الربائب

سأذكـر حبي للحـبيب محمـد إذا وصـف العشــاق حب الحبائب
ويبدو محياه لعيني في الكـرى بنفسي أفـدّيــه إذاً والأقــارب
وتـدركني في ذكـره قشـعـريرة من الوجـد لا يحويه علـم الأجانب
وألـفي لـروحي عند ذلك هزة وأنســا وروحا فيه وثبــة واثب
وإنك أعلى المرسليـن مكانـة وأنت لـهم شـمس وهم كالـثواقـب
وصل إلهي كلما ذرّ شــارق على خاتـم الرسـل الكرام الأطايب
وصلى عليك اللّه يا خير خلقه ويا خير مأمول ويا خير واهب
ويا خير من يرجى لكشـف رزية ومن جوده قد فاق جود السحائب
فأشـهد أن اللّه راحم خلقه وأنك مفتاح لكنز المواهب
وأنك أعلى المرسلين مكانة وأنت لـهم شمس وهم كالثواقب
وأنت شـفيع يوم لاذو شفاعة بمغن كما أثنى سواد بن قارب

وأنت مجيري من هجوم ملة   إذا أنشبت في القلب شر المخالب

فما أنا أخشى أزمة مدلهمة   ولا أنا من ريب الزمان براهب

فإني منكم في قلاع حصينة   وحد حديد من سيوف المحارب

وليس ملوماً عي صب أصابه   غليل الهوى في الأكرمين الأطائب

ملـــــــحــــــــق

" أطيب النغم في مدح سيد العرب والعجم" للإمام شاه ولي الله الدهلوي

إعداد: محمود شمّاس الوافي ابن حيدرعلي الفيضي الكُتِّبُّرَمِيِّ

والذي تعرضت له المواقع السلفية – (حيث تجرءُ بيان تراجم أعلام اسلامية من العلماء القدامي خاصة ممن لا ينساهم التاريخ بعطاياهم الميمونة العملاقة وعند تعريف مناهجهم لا سيما العقيدة والمذهب الفقهي تستتر الحقائق من جعل كلا منهم – أو يوهمون القارء - أصحابَ اللامذهبية والحاقيدن على فعاليات تراثية كأنهم لم يأخذوا من المذاهب الأربعة شيئا أو لم يعتمدوا عليه البت ولم ينتموا إلى مذهبين – الماتريدية والأشعرية-) ليس بصحيح بل ليس له من ذرة الحق نصيب ، فمن المجروحين بذلك الشيخ شيخ الإسلام شاه ولي الله الدهلوي الحنفي الماتريدي

يُعدُّ الإمام شاه ولي الله الدهلوي أبرز أعلام الهنود الذين لعبوا دورا مهما ذهبيا وقياديا في مختلف المجال الإنسانية والعلمية كتأليف الكتب في فنون إسلامية كالفقه والنحو والحديث والتفسير وغير ذلك والإصلاحِ القومي مستأصلي البدع والانحرافات وأرفعهم شأناً وأبعدهم صيتاً، وبلغ الإمام شأواً عالياً عندهم، وأقبلوا على قراءة مصنفاته وتدارسها وتعليمها، حتى يوجد له نظير لا فيمن عاصروه فحسب، بل في من أتى قبل وبعد، فلا يبعد إذا قلنا إن الإمام كان من رواد الأدب العربي في الهند، وأن له يد طولى في قرض الشعر والقصائد، رغم أنه لم يشتهر في الأدب العربي كما اشتهر في العلوم الإسلامية لأن العلوم الإسلامية احتلت شوطا كبيرة من معظم مكاتبه

ومما يُبدي مواهبه الأدبية ديوانُه العربي الذي جمعه ابنه الشيخ عبد العزيز ورتبه ابنه رفيع الدين، يوجد فيه هذه القصيدة البائية التي تعتبر واحدة من أروع المدائح النبوية للشعراء الهنود ، وقد شرحها بنفسه تحت عنوان " أطيب النغم في مدح سيد العرب والعجم"

إن لهذه القصيدة الأنيقة أهمية تاريخية كبرى حيث كتبها الإمام في عصر يُعبتر عصر التدهور والانهيار والانخفاض من ناحية السياسية واضطراب الخلقي والخُلقي على الأمة الإسلامية الهندية

ولاقت الدولة الإسلامية أوج الانشجاب والاندراس طبقا لأسباب لا يليق الذكر هنا ووجد الاستعمار البريطاني ثغرا واسعَ المدى وثلمةً مديدا في الروح الهندي لتوطيد أقدامها في ربوعها أكثر ما كان من قبل .

أما جانبها (القصيدة) الأدبي فمن مساهمات مرموقة للشعر الأدبي العربي الهندي الذي بيضه الأيادي الهندية فالقصيدة تحتوي كل من إثارة العواطف، والشمائل النبوي الكريمة ، وأخلاقه وذكر بعض معجزاته ووصف الأوضاع الاجتماعية والدينية إبان بعثته وبث الشكوى إلى النبي صلعم عما يعانيه من الهموم والأحزان والاستشفاع به والاعتصام للتخليص من جميع التحديات والمشكلات، قد بالغ الإمام في التوكإ على القرآن والسنة وكتب السيرة النبوية،

وليس عندنا أقوى أدلة تسفر عن عقيدة الإمام الدهلوي مما قال الدهلوي نفسه طوال القصيدة وعن غير توهّبه أيضا كما صوره العلامة أبو الحسن علي الحسني الندوي رحمه الله متأثرا بدعوة محمد بن عبد الوهاب ، حين يقول في ترجمة حياة الإمام شاه ولي الله الدهلوي خلال بيان أوضاع العالم الإسلامي " ويزيّنون الناس التماسَ الشفاعة من دفناء القبور (رجال الفكر والدعوة

الجزء الرابع ص 415) حتى نرى أن الامام قد تكاثر في التوسل مستغيثا به وفي الشكوى إلى الحضرة النبوية الشريفة ولاستشفاع له . فماذا يقول الندويُّ إذا سأله الشاه ولي الله الدهلوي- رحمهما الله - يوم الواقعة أما رأيتَ قولي

وأنت شفيع يوم لاذو شفاعة   بمغن كما أثنى سواد بن قارب

وأنت مجيري من هجوم ملة   إذا أنشبت في القلب شر المخالب

وأنت صرفت أوقاتك لإعداد ترجمتي وقرأت جميع مؤلفاتي فلما كنت أنت مخطِءا في حقي أنا بما تصديتَ لمزاعم ما وافقته أبدا، ولماذا – أيها الندوي- جلبتَ أيضا مخالف التوسل والاستغاثة بالأولياء وازدريت بهما والذي أخالفه البت حيث قلت " وكل ما كان يدور حول قبور الأولياء والمشائخ إنما كان تقليدا ناجحا لأعمال والتقاليد التي كانت تُنجز في معابد غير المسلمين وقبور المقديسين عندهم، فالاستغاثة منهم والاستعانة بهم، ومد يد الطلب والضراعة إليهم (المرجع السابق ص 508) فبماذا تنبس بقول عما قلتُ في الدنيا

إذا ما أتتني أزمة مدلهمة تحيط بنفسي من جميع جوانب

تطلبت هل من ناصر أو مساعد ألوذ به من خوف سوء العواقب

فلست أرى إلا الحبيب محمداً رسول إله الخلق جم المناقب

وصلى عليك اللّه يا خير خلقه ويا خير مأمول ويا خير واهب

ويا خير من يرجى لكشف رزية ومن جوده قد فاق جود السحائب

أليس فيها الاستغاثة بالنبي الذي مات والاستعانة به،ومدٌّ يد الطلب والضراعة إليه، ما الذي بعثك أن تجرأتَ على ما كتبت نفسك إبان تراجمي ولِما عرَّفت العربَ والعجمَ الأغاليطَ عن عقيدتي،،اللهم إن هذا الخطاب يواجهه كل من على منوال الشيخ أبي الحسن الندوي رحمه الله والذين جعلوا الحق كذبا والكذب حقا، وتطالوا في شأن الإمام، كانوا ويكونون، إذالساعة قامت،